اللغة والتنوعات الاجتماعية

إنَّ اللغة بوصفها ظاهرة اجتماعية وعنصراً أو مكونا من مكونات الثقافة قد حظيت بنوع من الاستقلال ، وأصبح لها علم معترف به تشيع الإشارة إليه بمصطلح " علم اللغة الاجتماعي" ، وليس المقصود بهذا العلم أنه تركيبة من علم اللغة وعلم الاجتماع أو أنه مزجٌ لهما أو تجميعٌ لقضاياهما ومسائلهما .

أنه يعني- باختصار شديد – ذلك العلم الذي يدرس اللغةَ في علاقاتها بالمجتمع . انه ينظِّم كلَّ جوانبِ بنيةِ اللغةِ وطرائقِ استعمالها التي ترتبط بوظائفِها الاجتماعيةِ والثقافية [١].

ووظيفة علمِ اللغةِ الاجتماعي هو البحثُ في الكيفياتِ التي تتفاعل بها اللغةُ مع المجتمع ، إنه ينظرُ في التغيراتِ التي تصيبُ بنيةَ اللغةِ استجابةً لوظائفها الاجتماعية المختلفة مع بيان هذه الوظائف وتحديدها [٢] .

ولكون اللغة ظاهرة حياتية اجتماعية صارت من أكثر الظواهر التصاقاً بحياة الأفراد ، تخضع لمقاييس المجتمع ، وأعرافه ، وتقاليده ، وثقافته ، بل هي الطريق لكشف عادات المجتمع ، وتقاليده ، ومستوياته الثقافية ، والمعرفية، والحضارية ، فهي قطعة من الحياة بل إنها صانعة ومبدعة لها أن تنشأ في المجتمع ، وتسير معه وتتغذى بغذائه ، وتنهض بنهوضه ، وتركد بركوده ، وكان تاريخ اللغة وسيظل مجالاً رحْباً نتصفَّحُ من خلاله تاريخَ الحضاراتِ الإنسانية [٣] .

وإذا كان اللسانيون المحدثون من أمثال فيرث وغيره قد أكدوا على دور السياق في تحديد المعنى ، فإنهم قد اهتموا أيضاً بالاستعمال الفعلي للكلمة في إطار مجتمع بعينه أو مجموعة ثقافية ، أو دينية ، أو علمية ، أو مهنية بعينها[٤] .

ويطلق الدكتور علي عبد الواحد وافي على مثل هذا الاستعمال ما يسمى باللهجات الاجتماعية فقد تنشعب أحياناً لغة المحادثة في البلد الواحد أو المنطقة الواحدة إلى لهجات مختلفة تبعا لاختلاف طبقات الناس وفئاتهم [٥]

ويطلق عليها الدكتور كمال بشر اللهجة المحلية ، فكل لغة أو لهجة محلية تبدو فيها تنوعات كلامية –قليلة أو كثيرة- في بنيتها تعادل تنوعات البنية الاجتماعية في المجتمع المعين وبقدر الاختلاف في البنية الثانية يكون الاختلاف في الأولى ، فمن المعلوم أن كل مجتمع ينتظم في إطاره طبقات أو فئات من

---

(1) ينظر:علم اللغة الاجتماعي (مدخل): ٤١

(2) ينظر:م.ن: ٤٧

(3) ينظر:التفسير اللغوي الاجتماعي للقراءات القرآنية : ١٧-١٨ .

(4) ينظر: معجم اللسانيات الحديثة : ٢٨ ، والتفسير اللغوي الاجتماعي للقراءات القرآنية :٢٠ .

(5) ينظر: علم اللغة : د. علي عبد الواحد وافي : ١٨٨ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الناس تختلف في ما بينها اقتصاديا وثقافيا وسياسيا ، كما تختلف من حيث مترلتها في السلم الاجتماعي [٦].

وفيما يأتي أهم صور اللهجات المحلية ذات التنوعات الاجتماعية :

١. من اللهجات المحلية ما يسميها (فندريس) اللغة الخاصة ويعني بها تلك اللغة التي لا يستعملها إلا جماعات من الأفراد وجدوا في ظروف خاصة ، مثال ذلك حالة (المحضِر) (مبلغ الأوامر القضائية) وحالة القاضي فهذان الموظفان يستعملان في تحرير الأوامر لغة بعيدة جدا عن اللغة الجارية وهي اللغة القانونية ، ومثال آخر وهي لغة الطقوس الدينية فكثيرا ما يستعمل المؤمن في خطابه لله لغة خاصة[٧] ، وفي هذا المجال يقول ماريو باي : ((الصوتيات وأصول الكلمات ملكٌ مشاعٌ لكلِ الطبقاتِ الاجتماعية ، على حين تظهر الاختلافات الطبقية ، في اختيار المفردات اللغوية ، وطريقة استعمالها)) [٨]

٢ . اللهجات الحرفية : وهي اللهجات التي يَتكلم بها فيما بينهم أهلُ الحرف المختلفة [٩] ، وتسمى أيضاً بـ (اللغات العامية الخاصة) ، وتتميز بتنوعها الذي لا يُحَد ، وتغيرها الدائم تبعا للظروف الاجتماعية والأمكنة ، فكل جماعة خاصة وكل هيأة من أرباب المهن لها عاميتها الخاصة ، فهناك عامية التلاميذ الخاصة ، وهناك عامية الثكنات الخاصة التي تختلف باختلاف الأسلحة بل وباختلاف الثكنات أيضا ، وهناك عامية الخياطات الخاصة وعامية الغسالات وعامية عمال المناجم وعامية البحارين[١٠] ، ويُقِرُّ (ستيفن أولمان) بأن لكلٍّ من هذه المجموعات ثروتها اللفظيةُ الخاصةُ بها ، وهي ثروةٌ تعكس خصائصَ الموضوعاتِ والمناقشاتِ ، التي يتناولها الأعضاءُ فيما بينهم ، وتسهِّل اتصالهم بعضَهم ببعض ، ولكنَّها في الوقت نفسِه تزيدُ في الهُوَّة التي تفصلُهم عن غيرهم ممن لا ينتمون إليهم[١١] ، و تنشأ هذه اللهجات بسبب ما يوجد بين طبقات الناس وفئاتهم من فروق في الثقافة والتربية ، ومناحي التفكير والوجدان ، ومستوى المعيشة ، وحياة الأسرة ، والبيئة الاجتماعية ، والتقاليد والعادات ، وما تزاوله كلُّ طبقةٍ من أعمال وتضطلع به من وظائف ، فتؤدي إلى إنشاء مصطلحات خاصة بصدد الأمور التي يكثر ورودها في حياتهم وتستأثر بقسطٍ كبيرٍ من انتباههم وما يلجئون إليه من استعمال مفردات في غير ما وضعت له أو قصرها على بعض مدلولاتها للتعبير عن

([6]) ينظر: علم اللغة الاجتماعي – مدخل : ١٩٨ .

([7]) ينظر:اللغة : فندريس : ٣١٤.

([8]) لغات البشر : ٨٣ ، وينظر: المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي : ١٣٢ .

([9]) ينظر:علم اللغة : د. علي عبد الواحد وافي : ١٩١ .

([10]) ينظر:اللغة : فندريس : ٣١٥-٣١٦ .

([11]) ينظر:دور الكلمة في اللغة :١٥٣ ، والمدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي : ١٣٣ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أمور تتصل بصناعاتهم وأعمالهم [١٢] ، ويسميها بعضهم بالرطانة الاجتماعية التي تشير إلى الأساليب الكلاميةِ الخاصةِ المتميزةِ بشحنها بمصطلحاتٍ وعباراتٍ فنيةٍ غيرِ مألوفةٍ وبمفردات خاصة يوظفها أناسٌ ذوو حرفةٍ مشتركة ، ومن أمثلتها في لغة الجيش (التعيين) وتعني الوجبة الغذائية [١٣].

٣. اللغة السرية : وهي من (اللغات الخاصة) وهي تلك اللغات التي يستعملها عدد محصور من الأفراد للتفاهم الذي فيه شيء من السرية ، وهي عامية الأشقياء الخاصة [١٤] ،وهي خارجة عن التوظيف اللغوي المألوف مبنى ومعنى ، وتوظف توظيفا خاصا في سياقات ومواقفَ محددةٍ ، وهي لغةُ طبقة أو طبقات اجتماعية تمارس نشاطَها في الخفاءِ والسرية التامة ويُعبَّر عنها أحياناً بـ (العالم السفلي) ويوظفها المجرمون والخارجون على القانون والمزاولون لأنشطة مرفوضة عرفا ، ويعاقب عليها القانون ، مثل اللصوص وتجار المخدرات والمهربين [١٥] ، بل وقد يستعملها بعض زعماء العصابات المسجونين لاستصدارِ أوامرَ بالقتلِ أو التهريبِ ينفذها أعوانُهم خارجَ السجنِ عن طريقِ رسائلَ مشفرةٍ ، ومن الثابت في بعض المجتمعات أنَّ سؤالَ أحدِ الخارجين على القانون لزميله متى عُدَّتَ من أوربا ؟ تعني في استعمالِهم اللغويِّ متى خرجتَ من السجن ؟ ، ويَشيعُ في استعمالِهم اللغوي لفظة (الأساور) تعبيراً عن الأداةِ التي يُقيَّد فيها المجرم ، وغير ذلك .

٤. اختلاف لهجة الرجال عن لهجة النساء :

تختلف لهجة الرجال عن لهجة النساء اختلافاً كبيراً أو يسيراً تحت تأثيرِ نُظُمٍ دينيةٍ أو تقاليد اجتماعية فتجد أنَّ هناك أساليبَ وألواناً من الكلام تتخلل أو تكسو التوظيفَ اللغويَّ عند النساء عنه عند الر جال [١٦] .إذ تجد أنَّ سلوكَ المرأةِ اللغويّ أكثر التزاماً وتمسُّكاً بالعرْفِ اللغويِّ العام ، ولا تسمح لنفسها بالتورط في ما نبا وشذ عن الكلام أو جاوز حدودَ اللياقةِ ولذلك تجدُها تبتعدُ بوضوحٍ عن المرذول من الكلام ، وتجدها تبتعد عن بعض الكلمات التي تُعَدُّ ضرباً من المحظور اللغوي (Taboo) تلك الألفاظُ التي تتصلُ بالعلاقاتِ الجنسيةِ أو بعض الأفعال المعروفة بالفظاظة أو التي تَخْدشُ الحياء ، فالمرأة في المواقف الحرجة – عموماً - تحوم حول المعنى فتحاول

([12]) ينظر: علم اللغة : د. علي عبد الواحد وافي : ١٨٨ .

([13]) ينظر: علم اللغة الاجتماعي – مدخل : ٢١٦-٢١٧ .

([14]) ينظر:اللغة : فندريس : ٣١٤-٣١٦ .

([15]) ينظر: علم اللغة الاجتماعي – مدخل : ٢١٥ .

([16]) ينظر:علم اللغة : وافي : ١٩٣ ، وعلم اللغة الاجتماعي : ٢٠٥ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

البيانَ بأساليبِ حُسْنِ التعبيرِ عن العبارات الرقيقة أو تكتفي بالإشارة أو التلميح إلى المقصود [١٧] ، وتمتاز المرأة بخصائص بيولوجية في بعض أعضاء النطق ونعني بذلك ((الأوتار الصوتية)) فهي تميل عموماً إلى ترقيقِ بعضِ الأصواتِ وعلى وجه الخصوص أصواتُ الإطباق كالصاد والضاد والطاء والظاد ولها نمطٌ يكاد يكون خاصاً بها في قواعد النبر وطرائق توزيعه في الجملة والعبارة [١٨] .

ولذلك يشيع في الاستعمال اللغوي في الواقع العراقي بعض الألفاظ النسائية التي تنطق بتنغيم خاص تبعاً لسياق الموقف تعبيراً عن التوسُّلِ أو اللطافةِ من مثل ((حبَّاب ، فدوة أروحلك ، عَفْية)) ولعلك تجدها محظورةَ الاستعمال بالنسبة إلى مجتمع الرجال ، فإن استعملها الرجل فسيكون في موضع استهزاء وسخرية من المجتمع بل وقد يَحكمُ المجتمعُ على مستعملِها بأنه كثيرُ التعايُشِ مع مجتمعِ الأنوثةِ بل وقد يُعبَّر عنه في مجتمعنا العراقي بمصطلح (انسوينجي) .
وما ذكرناه عن مجتمع الرجال يصدق على مجتمع النساء فاستعمالهن لبعض الألفاظ بصورة خارجة عن العرف الاجتماعي وطريقة أداء بعض الكلمات بتنغيم ونبر خاصين من مثل ((الله بلخير ، شلونكم شباب)) كلُّ هذا من شأنه أنْ يؤذنَ بانسلاخِ هذه المرأة أو تلك عن مجتمع الأنوثة وهو ما يؤدي إلى وصف تلك المرأة في مجتمعنا العراقي بمصطلح (مسترجلة) .

([17]) ينظر: علم اللغة الاجتماعي – مدخل : ٢١٦-٢١٧ .
([18]) ينظر: علم اللغة الاجتماعي – مدخل : ٢١٦-٢١٧ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com